المحاضرة الرابعة: الشعر العباسي وحراك الثقافة

لقد واجه الشعراء صراعاً ثقافياً ملحوظاً توزع بين صراع الحاضرة واهلها الذين تأثر لسانهم نوعاً ما بما اختلط بهم من الاعاجم الذين كانوا يجلّون العربية بوصفها لغة الدين والقرآن الكريم إلا أن عجمتهم كانت ملحوظة فسرت تلك العجمة بين اللهجات وأخذت مأخذا في التخاطب – وعلى الرغم انه لم يكون مؤثراً في بداية الأمر لإلا أنه خلق صراعاً على مستوى الثقافة والذوق العام، فكان لا بد من حدوث حراكٍ بيني توزع بين قديم سامٍ في قيمته المعرفية والجمالية وبين محدثٍ يمثل استجابة للواقع والعصر لا يمكن اغفال حضوره ، وبين البادية في هذا العصر التي كانت لا تزال تمدّ الحاضرة بكثير من الشعراء ذوي السليقة العربية السليمة من مثل أبي البيداء وابن الدُّمَينة وابن ميّادة وأبي حيّة النّميريّ ، وكان يقابلهم في المدن شعراء لم ينشأوا في البادية ، ولكن السليقة العربية تحوّلت إليهم وتمثّلت في دخائلهم، حتى أصبحوا لا يقلون عن شعراء البادية فصاحة وبياناً ، وكان ذلك بفضل علماء اللغة ورواتها مثل (حماد الراوية ، وخلف الأحمر، والأصمعي) ، فقد جمعوا لهم اللغة والشعر الجاهلي والإسلامي ، ووضعوا لهم مقاييسها وضعاً دقيقاً ، وظلوا طوال العصر يبعثون فيهم الإيمان بأن الشعر القديم هو القدوة المثلى ،

ولم يعرض هؤلاء اللغويون على شعراء الحاضرة نماذج الشعر القديم السهلة فحسب ، بل كان همهم الأول أن يعرضوا عليهم نماذجه الفخمة العالية المليئة بالحوشيّ والألفاظ الغريبة ، ومضوا فجعلوها مدار إملاءاتهم ومحاضراتهم ، وبسبب هذا التسجيل والشرح والتفسير انقادت اللغة وسلست لمعاصريهم من الشعراء وغير الشعراء.

وكان يقف وراء المحافظة على النسق القديم للشعر في العصر العباسي لغة وأدباً عوامل كثيرة منها :

1- كان أهم ماحفزهم على ذلك القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، حتى لا تستغلق دلالاتهما على أفهام الناس وأفهام العلماء أنفسهم ، وهذا يحدث عن طريق ذلك الكلام وتلك النماذج .

2- والعامل الآخر هو عامل سياسي ، فان خلفاء بني العباس أظهروا محافظة شديدة على لغة القرآن الكريم وبعثوا العلماء على مدارستها والتعمق فيها ورواية كل ما يتصل بها من أنساب وأيام وأخبار وأشعار . وقد جعلوا مقاييس وظائفهم الكبيرة التفوق فيها فكانوا لا يستوزرون ولا يستكتبون إلا مَن حذقها وبرع في أدائها، وأخذوا أبناءهم بتعلمها ، فأحضروا لهم كبار اللغويين ليحفظوهم كثيراً من نماذجها الشعرية وكي يقفوهم على صياغتها أو

أساليبها ، وتأليف المفضّل الضبي للمهدي كتاب (المفضليات) ذائع مشهور . وبذلك صار في القصر العباسي ذوق محافظ كان له أثره في الشعراء ، إذ كانوا يمثلون بين أيدي الخلفاء مادحين لهم . وكانوا يقيسون جودتهم بهذا الذوق ، فكان لابد لهم أن يتلاءموا معه حتى يظفروا بما يبتغون من جوائز كبيرة .

3- كما كان لعلماء اللغة والعارفين في العربية دورٌ مهم بارزٌ في حماية الشعر وتأمين حضوره بفاعلية والذود عنه بأن كانوا مركزاً لتقييم الشعر والحكم عليه فقد أصبح اللغويون سدنة الشعر في هذا العصر وحراسه ، فمن نوّهوا به طار اسمه، ومن لوحوا في وجهه خمل وغدا نسيا منسيا ، إذ أخذ الشعراء يعرضون عليهم أشعارهم قبل انشادها في المحافل العِظام . وعلى هذا النحو سيطر اللغويون على سوق الشعر العباسي، وقد مضوا يتمسكون بالمثل الشعري القديم تمسكاً شديداً ، وكان ابن الأعرابي يقول: ((إنما أشعار هؤلاء المحدثين – مثل أبي نواس وغيره – مثل الرّيحان يشمّ يوماً ويذوى فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلّما حرّكته ازداد طيبا)) .

ومثلما كانت هذه النقطة سبباً لحماية الشكل الشعري إلا أنها ربما انعكست سلباً على تطور الفن الشعري – كحالة طبيعية- لكل الجماليات والفنون الابداعية، إذ أن اهدار اللغويين لكثير من الشعراء البارزين بسبب حداثته كان خطأً في التقويم – كما يرى الدكتور شوقي ضيف – ونؤيده في هذا الرأي ، إذ الجودة الفنية لا تقاس بالقدم والحداثة، والشعر الجيد جيد في كل زمان ومكان .

وعلى هذا النحو كان الشاعر العباسي يحوّل الى نفسه نماذج الشعر القديم بخصائصها كلها ، يعينه في ذلك اللغويون بما يعرضون عليه منها سمعه وتحت بصره .

وهذا المسار دفع اشهر الشعراء الى جمع الشعر القديم وتبويبه في كتب ومتصانيف شعرية وثقوا فيها اشعار من سبقهم ومن خلدت اشعارهم في الذاكرة الجمعية في جزيرة العرب ، ومثال ذلك ما قام به أبو تمام ، في مجموعاته الشعرية التي انتخبها بذوقه من أشعار القدماء والمحدثين ،وفي مقدمتها ديوان الحماسة ، ولم يكتفِ اللغويون بما عرضوا من القصيد والرجز ، فقد وضعوا للشعراء أقيسة للغة في الاشتقاق والتصريف والنحو وموسيقى الشعر وعروضه .

ولا نبالغ اذا قلنا إن اللغويين هيؤوا للشاعر العباسي من العلم بالشعر القديم ما لم يكن يتهيأ لأصحابه أنفسهم ، فقد جمعوه لهم وكشفوا مادته من أطرافها جميعاً وأخذت تونق وتزدهر من جديد ، وهو ازدهار نفذ منه العباسيون الى اسلوب لهم حديث عُرِفَ باسم اسلوب المولدين ، تعريف(اسلوب المولدين): وهو اسلوب قام على النسق الشعري القديم يتخلله أثر

واضح للذوق الحضري الجديد ، اسلوب يحافظ على مادة اللغة ومقدماتها التصريفية والنحوية ويلائم بينها وبين حياة العباسيين المتحضرة ، بحيث تنفى عنه ألفاظ العامة المبتذلة كما تنفى ألفاظ البدو الحوشيّة ، وأشاعوا في هذا الأسلوب الألفاظ المنتخبة مع العذوبة والرشاقة حيناً ، والجزالة والرصانة حيناً آخر .

وكان بشار بن برد في طليعة مَن أرسوا هذا الاسلوب المولد الجديد ، واسلوبه يمتاز بالنصاعة والرصانة والصفاء والرونق . وتلاه جيل من الشعراء توزّعوا بين مَن يؤثرون الجزالة والفخامة وقوة البناء وضخامته مثل مسلم بن الوليد ، ومَن يؤثرون الليونة والسهولة مثل أبي العتاهية الذي عَمَّم ذلك في الشعر الرسمي : شعر المديح ، والشعر الذاتي الذي يتسم بالخصوصية مثل : شعرالخمر والغزل ، وشعر الزهد والوعظ ، وكان معاصره أبو نواس يحتفظ بكل ما يمكن من جزالة في الشعر الرسمي ، وفي بعض شعره ، وكثيراً ما يعمد في الضرب الأخير الى السهولة المفرطة .

على أن الشعراء سرعان ما انصرفوا عن طريق أبي العتاهية مؤثرين طريق بشار وما انتهى اليه هذا الطريق عند مسلم من المتانة وقوّة البناء ورصانته ، وخلفه أبو تمام فأوفى بهذا الاسلوب الجزل الرصين على غايته من الفخامة والروعة . وبذلك ردّ الأسلوب المولد الى قوّة السبك وضخامة البناء .

لقد ظلّ الشعراء يحافظون بكل قوّة على الصياغة العربية في المفردات والتراكيب وقواعد الاعراب والتصريف ، وتأثر كثير من الشعراء في الثقافات الأجنبية من فارسية وهندية ويونانية ، وكذلك تعمق كثير منهم الفلسفة اليونانية ، وقد بدا ذلك كله في أشعارهم من غير أن يخرجوا عن أصول الشعر الموروثة .

وقد ظل الشعر ذو شأن عالٍ كنبض حيّ في قلب المجتمع العباسي ، فكثر النظم وازداد عدد الشعراء زيادة لا نكاد نجد لها نظيراً في أي عصر آخر ، أمّا الأغراض لهذا الشعر فقد كانت هي نفسها في العصور التي سبقت هذا العصر ، أي ينظمون في موضوعات تقليدية ، مع تجديدهم وتخصيصهم لموضوعات مهيمنة في ساحة الشعر كشعر الطرديات والصداقة والخمريات التي كانت جزءاً من الشعر العربي منذ ولادته دون ان تكون لها المركزية في النظم والاهتمام، وبذلك أبقوا للشعر العربي شخصيته الموروثة مع ملاءمتهم بين تلك الشخصية وبين حياتهم العقلية الخصبة وأذواقهم المتحضّرة المرهفة ، وبذلك تحقق التواصل الوثيق الفاعل مع الأنموذج القديم .

دراسة حياة وشعر الشعراء

لا بد من ذكر بعض الشعراء في العصر العباسي الذين اغنوا المكتبة الشعرية بقصائدهم والذين كانوا خير شاهد على حياة ثقافية شغلت الذاكرة الثقافية وافادت الكم الجمالي والابداعي العربي والاسلامي نصوصاً كانت عيوناً للشعر ذاعت وتناقلتها الألسن عبر تاريخ العربية العظيم نذكر منهم :

ابو فراس الحمداني:

هو أميرٌ عربيٌّ من بلاد الشام كان فارساً لا يشق له غبار، وشاعراً اشتهر ببلاغته في الشعر، حيث امتاز شعره بالجزالة والسهولة والحلاوة والفخامة، إذ ظهر ذلك بوضوح في أشهر قصائده وهي "روميّاته"، ومن الجدير بالذكر أنّه كان ابن عم سيف الدولة الحمداني الذي أحبّه كثيراً، حيث قاتل أبو فراس إلى جانبه في معارك كثيرةٍ، لذا ولاه سيف الدولة الحكم على منبج وحران، وهما مدينتان سوريتان تقعان بين حلب ونهر الفرات.

نسب ونشأة أبي فراس الحمدانيّ

أبو فراس الحمداني هو الحارث بن سعيد بن حمدان والذي عاد نسبه إلى قبيلة تغلب، ووُلد في مدينة الموصل في العراق في زمن الخلافة العباسية عام 320هـ وقيل 321هـ، وكان أبوه أميراً من أمراء بني حمدان، أما أمه فكانت روميةً، وقد قُتل أبوه وعمره ثلاث سنوات فعاش يتيماً وربته أمه بمساعدة ابن عمه سيف الدولة الحمداني الذي كان في تلك الفترة حاكماً على بلاد الشام، فنشأ وترعرع في كنفه حيث أولاه عنايةً ورعايةً خاصةً، فشّب فارساً شجاعاً متمتعاً ببنيةٍ قويةٍ وقامةٍ طويلةٍ، وكانت تبدو عليه دلائل القوة، كما كان خلوقاً وذكياً، وكان دوماً يفتخر بنفسه وشجاعته ومقدرته على هزم أعدائه بالمعركة.

شعر أبي فراس الحمدانيّ

تنوّعت الأغراض الشعرية في شعر أبي فراس الحمداني، فكتب في الرثاء شعراً امتاز بعدم المبالغة في التفجع، وامتاز بذكر الحكم في الحياة والموت للتخفيف عن صاحب المصيبة، كما كتب في الغزل شعراً امتاز بصدق المشاعر وحرارة العاطفة، لكنه لم يخرج في غزله عن نهج سابقيه من شعراء الجاهلية من حيث الوقوف على الأطلال والتشبيهات، أما شعره في الفخر فقد جاء متأثراً بمكانته وبرفعة نسبه، فافتخر بنفسه وبعشيرته ومن ذلك قوله:

نطقتُ بفضلي وامتدحتُ عشيرتي فلا أنـــا مدّاح ولا أنـــا شاعر

نظم أبو فراس أيضًا في فترة أسره في بلاد الروم قصائد سُميّت (بالروميات)، والتي كانت مليئة بمشاعر الألم والحزن بسبب معاناته في الحبس وسلبه لحريته، فبثّ من خلالها

حنينه وشوقه لوالدته، وعتبه على سيف الدولة الحمداني بسبب تأخره في تخليصه من سجنه عن طريق الفدية.

أغراض شعر أبي فراس الحمدانيّ:

روميّات أبي فراس تعتبر روميات أبي فراس الحمداني من أفضل أشعاره لما فيها من صدقٍ للعاطفة، ووضوح للألم لا سيما في أشعاره الموجهة إلى أمه والتي امتازت بأسلوب يمتزج بعواطف الشوق والحنين، فالألم يعتبر مصدراً لروميات الأمير الشاعر، وهو الذي أكسبها صبغة جمالية فريدة وبعداً نفسياً عميقاً، فجعلها تُنوّع نزعاته النفسية من فخر وحنين إلى مناجاة وصبر وأنين، وقد سجل أبو فراس في رومياته معاناته وعذابات نفسه خلال فترة حبسه، وصور فيها حالة أسره ونفسيته المنكسرة، وقدرته على التصبر وقوة إيمانه بالله، كما ظهر جلياً فيها فتور همته الحربية فقد كان همه الوحيد هو الخلاص من سجنه المظلم، والتحرر من أسره والعودة إلى الديار ولقيا الأحباب، لهذا اتسمت قصائد الروميات بالرقة والسلاسة وببعدها عن التكلف والتصنع.

وله في الرثاء بعض الشعر فهو لم يرْثِ إلا بعض ذويه كأمه وأخته وابن أخته، وبعض أقاربه مثل ابن عمه وأخت سيف الدولة وبعض أصدقائه المقرّبين، وقد بلغ عدد أبيات شعره في الرثاء تسعين بيتاً، وكان أكثر رثائه لأمه والذي ظهر فيه صدق العاطفة وقوتها ومثال على ذلك قوله:

أيا أمَّ الأسيرِ سقاكِ غيثٌ بكُرْهٍ مِنْكِ مَا لَقِيَ الأسِيرُ
أيا أمَّ الأسيرِ سقاكِ غيثٌ إلى منْ بالفدا يأتي البشيرُ
إذا ابنكِ سارَ في برٍ وبحرٍ فمنْ يدعو لهُ أو يستجيرُ

ومن اهم قصائده في الفخر :

سَيَذكُرُني قَومي إذا جَدَّ جِدُّهُم وَفي اللَيلَةِ الظَلماءِ يُفتَقَدُ البَدرُ
فَإِن عِشتُ فَالطَعنُ الَّذي يَعرِفونَهُ وَتِلكَ القَنا وَالبيضُ وَالضُمَّرُ الشُقرُ
وَإِن مُتُّ فَالإِنسانُ لابُدَّ مَيِّتٌ وَإِن طالَتِ الأَيّامُ وَاِنفَسَحَ العُمرُ
وَلَو سَدَّ غَيري ماسَدَدتُ اِكتَفوا بِهِ وَما كانَ يَغلو التِبرُ لَو نَفَقَ الصُفرُ
وَنَحنُ أُناسٌ لا تَوَسُّطَ عِندَنا لَنا الصَدرُ دونَ العالَمينَ أَوِ القَبرُ
تَهونُ عَلَينا في المَعالي نُفوسُنا وَمَن خَطَبَ الحَسناءَ لَم يُغلِها المَهرُ
أَعَزُّ بَني الدُنيا وَأَعلى ذَوي العُلا وَأَكرَمُ مَن فَوقَ التُرابِ وَلا فَخرُ

العباس بن الأحنف

هو العباس بن الأحنف بن الأسود بن طلحة ، وهناك رواية أوردها الخطيب البغدادي في تاريخه دون إسناد يصل فيها نسب العباس بن الأحنف بنزار بن معد بن عدنان .

وبخصوص تاريخ مولده لا نملك غير اشارة واحدة تقول إنّ العباس مات وعمره أقلّ من ستّين سنة، وأكثر الظنّ أنّه مات بين سنة 193و 194 هـ ، وعلى هذا يكون مولده ما بين عام 133 و 134 هـ.

أمّا مسقط رأسه فمجهول أيضاً ، ولعلّه ولد في البصرة ، وكانت نشأته في بغداد.

شخصيته

كان العباس بن الأحنف شديد الترف ظاهر النعمة ، فاره المركب ، مكتملا أسباب الجاه عليه سيماء العزّ والإمارة ، حتّى أن صاحب الأغاني يقول : إنّه وجد بعض أشعاره في خراسان مكتوبا عليها : (شعر الأمير أبي الفضل العباس بن الأحنف) .

وكان كريما متلافا لايكاد يمسك ما بيديه ، وكان مترفا لم يسخِّر شعره لرغبة ولا رهبة .والراجح أنّه كان ينفق أمواله في أسباب الترف وفي مجالس الشرب ، فديوانه يذكر لنا غير مرّة أنّه كان من هواة الشرب وواحداً ممن كانت تعمر بهم مجالس السماع واللهو ، إلاّ أنّ حبّه للشراب كان معتدلا ليس فيه اسراف أو تبذّل أو خروج عمّا يرضي المروءة ، والشاعر لم يكن فاسقا ، وقد أكّد ذلك صاحب الأغاني حين قال عنه : (وكان شاعرا ولم يكن فاسقا).

والديوان كلّه شاهد على عفافه ، من مثل قوله:

وما يُرى في وصالِ اثنين قد شُغِفَا ما لم يَميلا الى الفحشاءِ مِن عارِ

وكيف لايكون عفيفا من يرى في حبّه آية يتقرب بها الى ربّه يوم الحساب :

أستغفرُ اللهَ إلّا من مودّتكم فإنها حسناتي يوم ألقاهُ

فإنّ زعمتَ بأنّ الحبَّ معصية فالحبَّ أحسنَ ما يُعْصَى به اللهُ

خصائص شعره

إنّ العباس ، شأن كل شاعر عربي ، كان على علم بالأمثال وروائع الأشعار ، وقد درس القرآن الكريم دراسة ظهر أثرها بيّنا واضحا في شعره ، كما في قوله:

سَلوا عن قميصي مثلَ شاهدِ يوسف فان قميصي لم يكن قدّ مِن قبُلِ

وكانت كثير من قصائده ومقطوعاته تغنّى من لدن الكثير من المغنّين أمثال ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق ومخارق وابن جامع وسليم وغيرهم .